ولود وعقيم

للأستاذ أحمد أمين

ركبت من أول محطة لترام مصر القديمة وهي كهلال شك ، جلد على عظم ، وعلى يديها طفل قد جلل بالبياض ، عصبت عيناه ، وغطى رأسه ووجهه بشاشة زرقاء

وركب في المحطة التالية سيدة نصف ، أطيب شطريها الذي هب ، ممتلئة البدن ، سمينة الضواحي ، خفيت الأولى ، وتحادثنا والنساء سريعات التعارف ، تراهن في طرفة عين يتحدثن لى من لم يعرفن قبل في أدق الأمور ، وأعمق الأسرار ، حتى كأنهن صديقات العمر ، ورفيقات الصبى ؛ فهن يتحدثن بعد دقيقة في السعادة والشقاء ، وأوصاف الأزواج وعيوبهم ، والحموات ومصائبهن ومضايقهن ، والدخل والخرج ؛ وقد ينتقلن إلى ما هو أدق من ذلك وأصعب ، مما لا يستطيع الرجال أن يتكلموا في بعضه إلا بعد عمر طويل ، وصداقة متينة ، ومشاركة في السراء والضراء

وبعد لحظة صرخ الطفل وأمعن في الصراخ ، تحاول أن ترضعه ليسكت فلا يسكت ، وتنيمه فلا ينام ، وتتبع معه كل الأساليب التي تعلمتها في اسكات الأطفال فلا تنجح ، وأخيراً تدعو عليه بالموت فلا يستجاب لها

— الثانية — ما له ؟

— الأولى — رمدت عيناه من أيام ثلاثة فشربي المر ، وفي الليلة الماضية لم أذق طعم النوم ، وأنا طول الليل واقفة على رجلي أذرع الحجرة من أولها إلى آخرها ومن آخرها إلى أولها ، وكلما هدأ وبدأ النوم ذهبت إلى السرير لأنيمه وأنام فيصرخ ويكرر النغمة عينها وعثل الدور نفسه إلى الصباح ، حتى دار رأسي ، وملت الحياة ، وتمنيت الموت ، ولم أر للحياة طعما منذ رأيت الأولاد ، وهأنا ذاهبة إلى طبيب العيون

أمعك أولاد أخر ؟

نعم — معي خمسة وهذا سادسهم ؛ وقد حاولت بكل الوسائل أن أمنع الحمل بعد أول ولد ففشلت وفشلت . ومرة حاولت أن أخلص من جنين فكدت أخلص من نفسي وبقي الجنين . ومرة أصبت بنزيف شديد فمرضت نفسي على طبيب فقال إنه اجهاض ، وليس من أمل كبير في بقاء الجنين ؛ ثم أمرني أن ألتزم سريري ولا أتحرك ، وأنام على ظهري دائماً ، وكتب لي دواء يمنع النزيف . فامتنعت من شرب الدواء ، وأكثرت الحركة ، وعملت كل شيء عكس ما نصح الطبيب رغبة في الاجهاض ، ثم مع هذا كله ارتفع الدم وثبت الجنين . وهذا هو الذي على يدي

و « اسم الله عليهم » كلهم ذكور ؟

لا والله ! أربعة ذكور وبنتان ، وكلهم في الهم سواء ، وكل يوم نوع جديد من أنواع العذاب . ففي آخر السنة نضع يدنا على قلبنا عند الامتحان ؛ وتظهر النتيجة ، فهذا نجح ، وهذا سقط بلا ملحق ، وهذا له ملحق ؛ وتمضي الأجازة في عناء ! وتبتدئ السنة ، فمن نجح في الشهادة الابتدائية ظهر متأخر الترتيب فلا نجد له مدرسة أميرية تقبله ؛ والشهادة في يد ، والمصاريف في يد ، والمدرسة في رفض ! ثم هذا صحيح وهذا مريض ، وهذا ذاكر وهذا لم يذاكر . ولا تسأل عن وقت ذهابهم إلى المدرسة ! هذا يبحث عن جزمته فلا يجدها ، وهذا عن طربوشه فلا يجده ، وترى فرد جورب في حجرة وفرداً آخر في حجرة أخرى ، فلا يكادون يذهبون إلا وقد بلغت الروح الحلقوم . وعند مجيئهم من المدرسة هذا يغضب على الأكل وهذا يرضى ، وهذا ينازع ذاك ، ولا ينقذنا من كل هذا إلا نومهم . ثم هذا الشهر شهر أقساط المصاريف ، وهذا شهر كسوة الصيف ، وهذا شهر كسوة الشتاء ، وماهية الزوج لا تكفي هذا وذاك ، والعيش كله عناء في عناء . وأنت ؟ أليس عندك أولاد ؟

كان منظراً غريباً ، فقد طفرت الدمعة فجأة من عين السيدة الثانية ، فلما أخرجت منديلها ومسحت دمعتها قالت : أبى الله أن يرزقني في حياتي ولداً ، وطالما دعوته وسألته ! وحججت مرة ، وكان أكبر همي من حجي أن أقف في المشعر بقعة وأسأل

الله أن يرزقني ابناً أو بنتاً ! وليكن الابن ذكياً أو غبياً ، ولتكن البنت جميلة أو دميمة ؛ فأنا راضية بأي مولود على كل حال ، ولكنه — سبحانه وتعالى — لم يفعل ، وفي القرآن الكريم : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور ، أو يزوجهم ذكراناً وإناثاً ويجعل من يشاء عقيما » فقد شاء أن يجعلني من الصنف الأخير — لتمنيت أن يكون لي أولاد ، وأتحمل فيهم أضعاف ما ذكرت من عناء . ثم أراهنك أني أكون سعيدة مغتبطة لا أشكو ولا أتألم — لقد طرقت كل الأبواب لذلك فلم أنجح ، ذهبت إلى الأطباء فعملوا لي عملية ، واحتملت في سبيلها كل الآلام ؛ وذهبت إلى المشايخ فرقّوا وعزّموا ؛ وذهبت إلى الشيخات «فخّضرن» وبخرن و « وصفن » ؛ وقالوا تخافين ؛ فخفت ونزلت القبر ، وركبت وابور « لونابارك » ؛ وقالوا وقالوا ، وفعلت وفعلت ، فذهب ذلك كله هباء ، ورزقني الله مالاً كثيراً استطعت أن أفعل به كل ما وصفوا حتى السفر إلى أوربا واستشارة أطبائها ، ولكن إذا أبى الله فماذا يفعل العبد ؟

لم يبق لي من ذلك كله إلا التلهف على الولد والحسرة الدائمة ؛ وكل شيء حولي يذكرني بالأولاد فيثير أشجاني وأحزاني . لقد رأيت في حديقتي أشجار البرتقال والليمون تحمل أثمارها فقلت يا لله ! أتسبل نعمك على الأشجار فتحمل كل عام أثمارها ، وتضنّ على فلا أحمل مرة ثمرة ! وعندي قطة تحمل دائماً وتضع مالا يعد من الأولاد ، وكلما حملت ذكرت حملي ، وكلما ولدت بكيت أولادي الذين لم يوجدوا بعدُ ؛ وأرى الفقيرات البائسات العاريات في الشارع كل واحدة منهن تحمل في بطنها ولداً ، وترضع ولداً ، وتجر ولداً ، فيتجمع الحزن في قلبي ، وتنفجر منه عيني ؛ وأسمع «معارفي» وصواحبي ، هذه ولدت ، ثم هذه ولدت ، ثم هذه ولدت ، فأقول لم يبق عقيما إلا أنا ، ولم يتخصص للشقاء غيري ! رزقني الله مالاً ولم يرزقني ولداً ، وليته رزقني ولداً ولم يرزقني مالاً ؛ ولو كان الولد يشرى بكل ما أملك لاشتريته وكنت سعيدة ؛ بل لو كان يشرى بعيني لاشتريته وكنت رابحة في صفقتي . وما الدنيا وما المال ؟ وما الحياة بغير الولد ؟ لقد كنت في أول أمري أطلب الولد خشية أن يتزوج زوجي غيري ، فلما أمنت جانبه ، واطمأننت من ناحيته ، طلبت الولد لأنه طبيعي ولأنه حياتي بعدي ، ولأنه موطن انتساخ روحي ، ولأني امرأة قد خلقت للأمومة . لقد أحسست بهذه الأمومة في صغري فعملت العرائس إرهاصاً لأمومتي ، ثم تزوجت تهيؤاً لهذه الأمومة ، فلما تقدمت في السن ولم أجد الأمومة رأيتني فقدت طبيعتي ، ورأيتني في الحياة مقدمة بلا نتيجة ، أو قبة بلا شيخ أو لوزة فارغة ، وأنا والعروس من الحلوى ، والعروس من القطن سواء ، كلنا لا يلد . ليس لي أمل في السلوة إلا بالموت . فهو وحده بلسم الهموم ، ومقبرة الأحزان ! وهنا ختمت حديثها — كما بدأته — بالدموع

قالت الأولى : والله لو ذقت مرارة الأولاد ما تمنيتهم ؛ ولو جربت سهر الليالي ما اشتقتهم ؛ ولكن أحب شيء إلى الانسان ما منع ؛ والقصر من بُعد أجمل منظراً من سكناه ؛ والخيال دائما ألذ من الحقيقة . لقد كان مرة أكبر أولادي يبكي وهو رضيع ولا نعلم سبباً لبكائه ، ويبكي ويشتد في البكاء حتى بلغ منا الهم مبلغه ، وإذا بزفة عريس تمر من تحت بيتنا ، فأضحكني زوجي أبو الطفل إذ قال للعريس : « غُرّ » غداً تخلف « وترى » — ولو تمنيت الآن شيئاً لتمنيت أني لم أكن تزوجت ، وان تزوجت فلم أكن « خلفت » — أتبادلينني ؟ وضحكت

قالت الثانية وتأوهت : وكيف يمكن البدل ؟ إنما أريد أولاداً مني لا منك ، أريد كبدي تمشي على الأرض أربيها ، ولا أريد كبدك أنميها وأغذيها — وأنت أيضاً لا تعبرين عما في نفسك تعبيراً صادقا ، فمن تهون عليه أولاده ؟ إنما ينفع البدل إن كان قدر لي الله أن أكون ولوداً وأن تكوني عقيما

قالت الأولى : أتريدين الحق يا أختي ؟ الدنيا كلها تعب فلا ولود في راحة ، ولا عقيم في راحة ، ولا متزوجة سعيدة ، ولا عزبة سعيدة

ووصل الترام إلى المنيبة فنزلنا ، هذه إلى طبيب ابنها وتلك لبعض شؤونها

قال صاحبي : ولكن كيف أمكنك أن تسمع هذا الحوار ؟

قلت : هذا سر الصنعة .

أحمد أمين